(١)

سِفر الرؤيا الأمريكى

اعتقد البيوريتانز ـ التطهريون ـ الذين فرّوا من الاضطهاد فى انجلترا ليستقروا فى «بريّة» أمريكا، أنهم يقومون بالدور الأخير فى التاريخ البشرى، وراحوا يؤيدون هذا المعتقد باستشهادات كثيرة من الكتاب المقدّس[1]. فاعتبروا أمريكا «كنعان» الجديدة، وعلى هذه الأرض الأمريكية ستقوم الألفية التى يسود فيها السلام، والتى سبق أن أشير إليها فى سفر الرؤيا ليوحنا. لقد كتب كوتون ماثر البيوريتانى والشخصية البارزة فى هارڤارد، كتب قصيدة ملحمية على النَّسق الڤيرچيلى عن انجلترا الجديدة (نيوإنجلاند) جعل لها عنوانا هو: معجزات المسيح فى أمريكا، ووصف فيها قصة أمريكا بدءاً من الصعود التدريجى للمستعمرة من الاستقرار فى ڤيرچينيا إلى تأسيس المملكة الصالحة ـ مملكة الجماعات المسيحية ـ وأخيراً الصراع مع عدو المسيح «Antichrist» هذه النهاية الألفية لهذا التاريخ المقدَّس، تَبُزُّ فكرة السلام الرومانى على عهد أغسطس[2] Pax Romania. وشبّه ماثر الرحلة من أوروبا بهروب بنى إسرائيل من العبوديّة فى مصر، وشبه الرحلة (الطويلة) عبر الأطلنطى بالأعوام التى قضاها الإسرائيليون فى البريّة، بينما شبّه تواصل الاستقرار فى العالم الجديد بسقوط حكم الشيطان، حيث أصبح العالم الجديد (البـريّة) هو «الأرض الموعـودة» «جنة الله ـ The Garden of God». فى تناول ماثر للتاريخ والجغرافيا، نجد أنَّ الزمن نفسه قد أعيدت صياغته، وأعيد تقديسه أثناء تقدم المهاجمين الإنجليز (النيو إنجلاندرز) فى اتجاه الغرب عبر العالم الجديد.

وكان چوناثان إدواردز، وهو لاهوتى من الإنجليز الجدد (من النيو إنجلاند)، كان هو أيضًا من المؤمنين بالفكر الألفى. وقد ساعدت عظاته الروحية على إذكاء روح الإحياء [الدينى] فى نيو إنجلاند فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن الثامن عشر، حيث راح المستعمرون يقبلون على الكنائس فى جماعات، واعتقد إدواردز ـ كما اعتقد

ماثر . . فى أنَّ المستعمرين يعيشون فى آخر الزمان ، ورأى فى النهضة والإحياء دليلاً على ذلك :

«لا يبعد أن يكون هذا من عمل روح الله ؛ لأن ما حدث استثنائى ومدهش . إنه فخر أو على الأقل استهلال لهذا العمل العظيم لله ، والذى تنبَّأ به الكتاب المقدس فى أكثر من موضع . . . وهناك أدلة كثيرة تجعل من المحتمل أن هذا العمل سيبدأ مرة أخرى فى أمريكا»(٣) .

وقد حدّد إدواردز بداية الألفية بحوالى سنة ٢٠٠٠م ، واعتقد أنه قبل حلول هذه الألفية ، لا بد أن تخوض أمريكا معركة مع ممالك الشيطان ومع البابوية (الكاثوليكية) ومع الإمبراطورية العثمانية التركية . كما أنَّ هذه الحقبة الجديدة يدل عليها الوعظ بالإنجيل بين كل الأمم على ظهر الأرض ، وتحويل اليهود [إلى المسيحية] .

لقد كان هؤلاء المستوطنون وعلماء اللاهوت الأمريكيون الأوائل من المؤمنين بمرحلة ما بعد الألفية ، بمعنى أنهم اعتقدوا أنهم ببنائهم كومنولث صالح فى العالم الجديد ، فإنهم يمهدون للحكم الألفى الذى يحكم فيه القدّيسون على الأرض ، ويعتقدون أنه ـ بعد ذلك ـ يعود المسيح ليحكمها . ومصطلح ما بعد الألفية يستخدم لتمييز الاختلاف الأقدم فى العقيدة الألفية عن ما قبل الألفية ، وهى الفكرة التى تسيطر الآن على الدين الرؤيوى الأمريكى ، والتى ستأتى فى الفصل التالى . القائلون بما قبل الألفية يعتقدون أن «الحساب الأخير ـ The Last Judgementr» سيحدث قبل حكم القدّيسين الألفى . كلا الخلافين بألفية العالم الجديد يكمن فى الزعم بأن الأمريكيين ـ بمعنى استثنائى على نحو ما ـ هم المسئولون عن التاريخ البشرى ، وأن قصتهم [تاريخهم وحاضرهم ومستقبلهم] تمثل تحقيق نبوءات الكتاب المقدس عن نهاية الزمان والتاريخ البشرى ، والحساب الأخير والوحى الأخير ـ وكلمة سفر الرؤيا تعنى وحيًا أو كشفًا أو كشف الحجاب للحكم الألفى الذى يقوم به القديسون ، وفى فترة هذا الحكم يتم تحقيق الخلاص ، نهائيًا للتاريخ البشرى . **والأمريكيون فى هذه القراءة الألفية للتاريخ يرون أنَّ أمريكا «أمّة مخلّصة» أى أنها الأمّة الأولى المعدّة إعدادا كاملاً لتحقيق الخَلاَص الحقيقى للتاريخ البشرى**(٤) .

وبالنسبة لچوناثان إدواردز، فهذا يعنى أن الأمّة الأمريكية برُمَّتها أصبحت هى الكنيسة الحقيقية. «إنها نوع من القُدْس الجديدة»، حمل فيها المجتمع الروحى على عاتقه مهمة المسير نحو الخلاص. فكما يرى المؤرّخ الأمريكى «ساكڤان بيركوڤتش»، فإن هذا التطويع فى اليپوريتانية - لتكون رؤيا أوسع للثيوقراطية الأمريكية - **ساعد على تمهيد الطريق للثورة نفسها التى أكَّد الأمريكيون فيها - أخيرًا - على هويتهم باعتبارهم هم «الشعب المختار الحقيقى» ضد المغتصبين الإنجليز لنداء «الكتاب المقدس - Bibical Calling»**. كما كان لهذا وجود كامن فى تأسيس الحركة التقدمية التنويرية الأمريكية التى قالت بأن أمريكا بوصفها «فردوسًا أرضيًا» - تلك هى «جنَّة الله فى الدنيا(٥) - Worldly Kingdom of God».

إذا كانت أمريكا هى حقيقة وطن «قدّيسى الرب - Saints of God»، عندئذ يكون تحقيق قَدَرها المقدّس هو أن «تقدم القانون لبقية العالم» من خلال معاركها العسكرية والتجارية ضد الإمبراطوريات القديمة فى أوروپا ومن خلال غزوها لـ «البرابرة المحليين [السكان الأصليين، أى الهنود الحمر](٦) - native barbarians». لقد جرت مطابقة وقائع نشأة أمريكا مع وقائع الألفية الجديدة، لدرجة أن أصبح تاريخ أمريكا مطابقًا حرفيًا للتاريخ الرؤيوى للقُدس الجديدة - أعوام الرعب التى عانى فيها الحُجَّاج الجدد - المهاجرون الأوائل - الاستقرار التدريجى فى البريّة، والتأقلم مع ظروفها، الحرب مع فرنسا وبريطانيا وإسپانيا، والحروب مع «أهل البلاد الأصليين»(٧). فالسحب السوداء والمعارك والانقسامات الداخلية والنكسات.. كل هذا كان لا بد منه فى مسيرة التقدم العظمى نحو الظهور النهائى لمملكة المسيح، فمثل هذه الاختبارات، ومثل هذه المعارك مع أعداء شعب الله، تشير إلى اقتراب ميعاد ملكوت الله على الأرض. وستظهر أمريكا من مثل هذه المعارك بوصفها مملكة الله على الأرض لتصبح «المدينة فوق التل» أمّة مقدّسة تنجذب إليها كل الأمم. الإمبراطورية الفرنسية والهنود الذين حاربوا مع الفرنسيين ضد «اليانكى» [أمريكيو نيو إنجلاند الواسپ] سيسقطون فى حرب نهائية كبرى بين «الحمل والوحش» التى تسبق معركة «هرماجدون». لقد ظهرت اللغة الروحية للحرب أوّل ما ظهرت فى سياق الثورة الأمريكية لتصبح معركة الوطنية على حد تعبيرات چون كوينسى آدمز «إنجازا للنبوءات تم إعلانه مباشرة من الله لحظة ميلاد

المخلِّص (المسيح) وتنبأ به الأنبياء العبريون - اليهود - الأعظم مكانة قبل ذلك - أى قبل ميلاد المسيح - بستمائة سنة»[٨].

فكرة الألفية المحفورة فى العقل الأمريكى، فكرة مؤثّرة بعمق فى تكوين المفهوم الأمريكى عن الحرية وعن الليبرالية، وهو مفهوم يختلف كثيراً عن مفهوم الأوروبيين لليبرالية، ويجعل المفهوم الأمريكى لها أقرب إلى ما نسمِّيه الآن «الليبرالية الاقتصادية الجديدة - economic neoliberalism»[٩]. فالليبرالية الأمريكية - تقليديًا - هى الإيمان بأن الأفراد يجب أن يكونوا أحراراً فى تقرير «قَدرهم»، متحررين من تدخّل الدولة، ومتحررين من الملاك والأرستقراطيين والتقاليد والعادات التى تضبط الحياة فى أوروبا. ولقد تم تلخيص النموذج الأصلى لهذا فى القيم المحورية فى إعلان الاستقلال الأمريكى - حرية، مساواة، فردية، مبادئ حزب الشعب، وعدم تدخل الدولة إلا فى «أضيق الحدود - Laissez Faire»[١٠].

فالليبرالية الأمريكية تنطوى على إرهاص مستقبلى يصوِّر التاريخ الأمريكى بوصفه تاريخ شعب حر أسّس مجتمعه الجديد على أرض عذراء. هذه هى الليبرالية التاريخية التقدمية التى هى مصدر الثقة البراجماتية التى يعمل الأمريكيون من خلالها على تشكيل قَدَرهم ومواجهة أعدائهم. لقد شرعوا فى فهم أمريكا بوصفها الاستثناء الأول الحقيقى فى مسيرة البشرية لتكوين المجتمع الصالح - أول أمة حرة وديمقراطية بمعنى الكلمة. إنها أول مجتمع غير إقطاعى وغير أرستقراطى وغير ملكى. إنها مجتمع تحظى فيه حقوق الأفراد وحرياتهم بالأسبقية على الالتزام بأية أيديولوچية أو هيراركية [هرمية] لكاهن أو قسيس.

أعطت فكرة ما بعد الألفية المحفورة فى العقل الثقافة الأمريكية ثقةً فى إمكانية التغيير، وديناميّة غالبًا ما تكون غائبة فى أوروبا، وهى من أكثر ملامح أمريكا إثارةً لإعجاب الغرباء. إنها أيضًا تعزّز الاعتقاد بأن أمريكا لن تكون - فقط - دولة الحرية، وإنما أيضًا ستستخدم ثروتها النامية ومكانتها فى العالم للنهوض بـ«القضية المسيحية - Christian Cause» عبر العالم. سيؤدى تأثير العقيدة المسيحية وقيمها إلى إفراز فترة من الازدهار الروحى والمادى، والتقدم نحو عالم السلام. زودت هذه «التفاؤلية البَعْد ألفيَّة» فى إمكانية التقدم الإنسانى زوّدت الليبرالية الأمريكية بالثقة فى أنّ قيمها

الأساسية ممثلة فى الحرية والفردية والمشروعات العملاقة ستُفرز فى النهاية عالما أفضل للجميع. سيتم بناء مملكة الرّب فى المنظور الما بعد ألفى فى أمريكا، بل وحتى فيما وراء أمريكا من خلال ديناميّة الأمريكيين الثقافية والاقتصادية، ومن خلال مؤسساتهم [مؤسسات الأعمال] وجيوشهم وقيمهم.

الفردية البيوريتانية
وميلاد الديمقراطية

إلى جانب فكرة الألفية، هناك أيضًا الفردية البروتستانتية التى تُعد مفتاحًا آخر أسهم البيوريتان ـ فى تقديمه لليبرالية الأمريكية التى شكّلت قَدَر أمريكا، فالاعتقاد فى أن محاسبة العالم بات أمرًا وشيكًا، ينطوى على فكرة أنَّ كل فرد سيمثل أمام الله ليُحاسب، وسيكون هناك برابرة وآثمون. هذا الاعتقاد دعَّم مقولة «فرديّة الإنسان»، بمعنى مسئوليته عن عمله، وبالتالى فهو يشكِّل قَدَره، وهذه الفكرة مرتبطة بالفكر البروتستانتى خاصة الفكر اللوثرى القائل بأنَّ «كلَّ المؤمنين كهنة» أو بتعبير آخر الكهانة ليست قَصْرًا على «رجال الدين». هذه الفكرة فى التقليد البيوريتانى ـ فكرة دولة الكنيسة ـ أفرزت فهمًا للهُوية الاستثنائية الفريدة، وتُتيح لكلِّ فرد أن يكون عضوًا فى جماعة مختارة من الله the elect of God.

حديث البيوريتانز عن مساواة كلٍّ فرد أمام الله نتج عنه تركيز فريد على التجمع الدينى، بوصفه الوحدة الأساسية للنظام الاجتماعى للكنيسة فى المجتمع البيوريتانى، خاصة فى العالم الجديد، حيث تحرَّر الدين البيوريتانى من الترتيبات ـ الطقوس ـ الأوروبية السياسية والدينية. ويسوقُ دافيد ليندساى الحُجج ليدلِّل على أنَّ ثقافة التجمع والمساواتية هذه قدَّمت الحضَّانة التى نمت فيها الممارسة الديمقراطية الأمريكية، وأن الزمالة وحكم المجتمع المسيحى من خلال التجمع المسيحى فى الاجتماعات المفتوحة هو الشكل الذى ظهرت فيه الديمقراطية الأمريكية فى بدايتها(١١)، وكما أشار چيفرى ستوت، فإن العنصر الأساسى فى ثقافة اللقاءات المفتوحة هذه، كان هو الاعتقاد البروتستانتى الراديكالى فى «التفوّه بالنبوءات ـ prophetic utterance» فكل

واحد له الحق فى أن يتكلَّم، فربما كان ما ينطق به وحيًا من الله، فلا نعرف ما إذا كان ما يقوله وحيًا أم لا إلا إذا نطق به، وتقرر المجموعة ذلك(١٢). وعلى هذا فطائفة الكويكرز - Quakers يعتقدون أن داخل كل شخص هناك ما هو لله، لذا فلكل شخص الحق فى أن يُسْمع فى الصلوات الجماعية (العامة) ما دام ما يقوله لا يخرج عن النظام [الكتاب المقدس]، وسلمى. وعلى هذا فاجتماعات الكويكرز هى بشير بالممارسة الديمقراطية الأمريكية بما فى ذلك حرية التعبير.

من المحال أن نَبْخَس أهمية الجذور الدينية المحلية للثقافة الديمقراطية فى أمريكا وتناقضها مع أشكال الحكم الديمقراطى التى ظهرت فى كثير من أنحاء أوروبا، والتى هى أكثر مركزية وإنسانية. إنه عامل مهم لشرح عمق الطبيعة الديمقراطية فى أمريكا والتى ظلت قائمة موجودة رغم قيام أنواع جديدة من المؤسسات - الشركات والنقابات.. الخ - فى القرن العشرين، خاصة الشركات أو المؤسسات متعدّدة الجنسيات والمؤسسات الصناعيَّة العسكرية. وبينما نجد أنَّ المشاركة الشعبية فى الانتخابات الرياسية وانتخابات الكونجرس قد انخفضت، حتى أن بوش فى سنة ٢٠٠٠م لم ينتخبه إلا رُبع من لهم حق التصويت، ومع هذا فإنَّ مستوى المشاركة فى الحملات السياسية يبقى أعلى بكثير فى الولايات المتحدة مما هو عليه الحال فى أوروبا، وفى الوقت نفسه فإن المناقشات العامة تبقى نابضة بالحياة رغم السيطرة المحكمة لمؤسسات الإعلام على الاتجاه السائد. فالإذاعة الوطنية - وكثير من المجلات الراديكالية وشبكات الإنترنت - تقدّم فى أمريكا آراء معارضة أكثر بكثير مما عليه الحال فى بريطانيا. رغم أنه منذ ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م جرت محاولات لقمع المعارضة وحرية التعبير على يد المسئولين فى واشنطن، مما يشير إلى ميول مناهضة للديمقراطية تجلَّت فى «مرسوم الوطنية» و «الحرب على الإرهاب» ومشروع «الأمن الداخلى».

تشابك المثل الأعلى الأمريكى للديمقراطية مع الرعايا المحلّيين للكنائس يشير إلى الروابط العميقة بين الطبيعة التطوعيّة للدين الأمريكى، وتطوعية أفراد المجتمع الأمريكى. فالتاريخ الأمريكى هو تاريخ الحُجَّاج والمواصين الذين اختاروا - بفعالية - أن يشكِّلوا قَدَرهم بأنفسهم وأن يختاروا دينهم. وينص الدستور الأمريكى بوضوح على

أنه «لن يكون هناك اختبار دينى [لتقلد الوظائف]» لأى مواطن أمريكى (المادة رقم ٦ الباب ٣). لذلك يعد أمراً غير قانونى أن تُقدم مدارس الحكومة صلوات رسمية أو مقررات دينية. فالتطوعيّة والاختيار الشخصى كامن فى أعماق الأمريكى، وفى عمق ما هو دينى فى أمريكا. هذا المبدأ جرى الدفاع عنه فى التعديل الدستورى الأول الذى نصَّ على أن «الكونجرس لن يُصدر أى قانون خاص بتأسيس دين» ـ النص فحرية الدين ـ لا التحرر من الدين ـ هى المطلوب حمايتها(١٣).

ويسوق رودنى ستارك الأدلّة على أنَّ شخصية أمريكا القائمة على عدم المركزية وعلى التطوعية قد أنتجت واحدةً من المجتمعات الصناعية القليلة المتقدمة، التى واصل فيها الدين الانتعاش وكان أبعد ما يكون عن التلاشى والسقوط: الدين فى أمريكا يزدهر؛ لأنه دين متعدد الأشكال وتنافُسى(١٤). فبينما نجد الرابطة فى أوروبا بين الكنيسة والدولة قد أنتخبت كنائس احتكارَية تابعة للدولة حيث يكون الإكليروس فيها موظّفين مدنيين، نجد فى أمريكا أن الفصل الواضح بين الكنيسة والدولة سمح بتباين واسع المدى فى الطوائف والمذاهب أدى لازدهارها، وكان هذا التباين المتعدد قوةً للمؤسسة الدينية فى أمريكا. هذا النَّسق الكبير المكوَّن من أنواع مختلفة من المسيحية ـ بالإضافة للأطياف الدينية الأكثر حداثة من مختلف الأديان ـ قد أفرز ازدهارا فى «السوق الدينى ـ religious market» يمكن أن تُلاقى فيه الطموحات الدينية ما لا يُحصى من الرغبات والحاجات، وعلى هذا فإنَّ غالبية المسيحيين الأمريكيين لا ينتمون إلى الطوائف المسيحية العالمية المعروفة تاريخيا، مثل الكاثوليكية أو الكنائس اللوثرية، وإنما ينتمون إلى جماعات دينية صغيرة، بدءاً من طائفة الأپالاشى إلى طائفة المينونيت.

زيادة فرص الاختيار فى «السوق الدينى ـ religious market-place» يعنى أن المؤسسات الدينية الأمريكية أكثر حساسية للتغير الثقافى ـ الاختلافات الثقافية ـ من نظيراتها الأوروبية الاحتكارية، فالمؤسسات الدينية الأمريكية لا تتمسك بترف التمسك بما هو تقليدى فى الدين، فقد يرى «الزبائن ـ customer» أنَّ هذا التمسك قد عفا عليه الزمن outmoded أو أنه أصبح غريباً خاصا بفترة تاريخية بعينها. فالمرونة الثقافية والمؤسسية هما بطبيعة الحال مفتاح ازدهار المشروع التجارى، وهما ـ بالضبط ـ ما يجعل المؤسسات الدينية الأمريكية حسّاسة ومُستجيبة لحاجات «زبائنها» الدينيين، وهذا ما يجعل الدين الأمريكى ـ كظاهرة غربيَّة ـ ناجحًا نجاحًا لا نظير له. لكن هذا النجاح ليس

خاليًا من الغموض. إنها مرونة الدين الأمريكى وتكيُّفه مع السوق الأمريكى القائم على الرأسمالية والزبون ـ العميل ـ الرأسمالى الاستهلاكى، ومع القيَم الفردية، والسلوكيات الفردية، هى التى جعلت هذا السوق يزدهر، وهذا مكّن من ظهور التحالف غير الموفَّق بين المسيحية المحافظة والأيديولوچيا الإمبريالية السياسية الجديدة التى توجه ـ الآن ـ الاقتصاد السياسى، والسياسة الخارجية للولايات المتحدة. وهذا أيضا يوضِّح تحالف أصولية السوق market fundamentalism مع الأصولية الدينية فى اليمين الدينى والجمهورى، اللذين وجَدَا دعما كبيرا من الرئيسين رونالد ريجان، وچورچ دبليو. بوش.

ينقص الثقافة المسيحية الأمريكية المصادر الكافية لنقد الرأسمالية والاستهلاكية والإمبريالية الأمريكية، وهذا يرجع ـ بالضبط ـ إلى طبيعتها التطوعية. فكما يُدلل ستانلى هورواس، فإنه رغم الزعم بأن فَصْل الكنيسة عن الدولة يضمن حرية الاعتقاد، فالحقيقة أنّ الكنائس ـ والدين بشكل عام ـ قد أصبح أسيرا للطريقة الأمريكية فى الحياة. لقد أعاد الأمريكيون ـ بشكل فعّال ـ تأسيس المملكة المسيحية ـ فى العالم الجديد. وعلى هذا فإنّ دين العالم الجديد ليس بالضبط هو دين يسوع المسيح ـ المسيحية المناهضة للإمبريالية. فالقيم الأساسية فى الدين الأمريكى أكثر اتصافا بالأمريكية. إنّ التصاقها بالصِّفة الأمريكية أكثر من التصاقها بالعهد الجديد. إنها تشمل مزاوجة لافتة للنظر بين الحرية الفردية والوطنية، وهذا يتطلب أفرادا مستعدين لتكريس أنفسهم وأبنائهم والجانب الأكبر من ميزانيتهم العامة ـ وبالتالى ما يدفعونه من ضرائب، للحرب والاستعداد للحرب. هذا هو السبب الذى جعل بوش لا يُواجه صعوبة فى ضم معظم الأمريكيين المسيحيين إلى جانبه فى حربه الصليبية الإمبريالية الجديدة.

***

القدَر المبين
وسياسة التوسّع

دلَّل المؤرخون الأمريكيون ـ تقليديّا ـ على أنّ أمريكا ليست أمَّة إمبرياليّة وأنّ انخراط الولايات المتحدة فى حروب خارجية كان استثناء من اهتمام الأمريكيين بالسلام الذى

يفضلّون داخل بلادهم بعيداً عن الصراعات التى تجرى فى بقية العالم. فالولايات المتحدة وفق هذه المقولة تُوصف بأنها «قوة عظمى ممتنعة»، إذ أنها لا تَنْخرط فى نشاطات عسكرية خارج حدودها إلاّ عندما تُدعى لهذا، أو عندما تبدو المصالح الأمريكية معرضة لمخاطر حقيقية[١٦]. وعلى أية حال، فإن التاريخ الطويل للتدخلات الأمريكية خارج حدودها يشير إلى أنَّ هذه الفكرة القائلة بانعزال أمريكا ومقاومتها للاستعمار إنما هى فكرة وهمية. فأندرو باسيڤتش، القائد العام السابق للقوات المسلحة الأمريكية، يدحض خرافة انعزالية أمريكا، ويُدلّل على أن الجمهورية الأمريكية كانت دائما إمبريالية فى طموحاتها وأهدافها، وذلك فى كتابه الذى يحمل عنوان: الإمبراطورية الأمريكية[١٧]. ومايكل إجناتيف يرى أنَّ الوقت قد حان بالنسبة للأمريكيين كى «يحملوا» على عاتقهم «عبء» إمبراطورية، وأن يتحملوا المسئولية الكاملة لتمدين العالم وسياسة أموره، وفيما يرى إجناتيف فإن التاريخ الأمريكى يفرَّغ من معناه إذا لم يكن تاريخ إمبراطورية فى طور البناء:

«من البدايات الأولى لم تكن الجمهورية الأمريكية أبدًا بمنأى عن الحروب الخارجية foreign wars. وتُظهر دراسة حديثة للكونجرس أنه قلّما مرّ عام منذ تأسيسه لم ترسل فيه الولايات المتحدة جنودها فيما وراء البحار، من قصور مونتزوما إلى سواحل طرابلس؛ لمطاردة قراصنة، ومعاقبة قطّاع طرق وإنقاذ مواطنين أمريكيين من الخطر، والتدخل فى الحروب الأهلية، وإيقاف المذابح، والإطاحة بنظم الحكم غير الصّديقة (سواء كان عن حق أو باطل) وتصدير الديمقراطية. فالسياسة الخارجية الأمريكية تتكوّن - إلى حد كبير - من عقائد سياسية تدور حول: متى وأين يجب التدخل فى بلاد الشعوب الأخرى»[١٨].

ضمت الرؤيا الأمريكية لما بعد الألفية بذور الإمبرطورية الأمريكية بوصفها - أى أمريكا - هى الأرض الموعودة، وأن شعبها هو الجنس المختار الجديد - New chosen race، وفى أربعينيات القرن التاسع عشر صاغ الأمريكيون مصطلح القَدَر المبين - manifest destiny ليصفوا مفهومهم للغرض المقدّس الفاعل فى التاريخ الأمريكى ولتوسيع الأرض الموعودة من الشرق والغرب الأوسط إلى كاليفورنيا - الخاضعة للحكم الإسبانى - والشمال المكسيكى وتكساس. وفى النظرة اليوتوبية فى القرن التاسع عشر،

كانت أمريكا مساحة مقدَّسة يرشدُ الله الناسَ فيها ليصبحوا «أمة جديدة للحرية» ستَعرض للمرّة الأولى فى التاريخ البشرى نظاماً عالميا جديدا هو تجربة عظيمة لصالح البشرَيَّة جمعاء[١٩]. هذه الرؤية استدعاها تراث المستوطنين الأوائل الذين رأوا أمريكا «حَرَماً آمنا للمضطهدين» و «حارسة للحرية»، وهما عنصران أساسيان فى المخيِّلة الأمريكية منذ چون آدمز حتى وودرو ولسن[٢٠]. **وكان التوسع الإمپريالى قد اكتسب الشرعية المقدسة بفكرة أنَّ إله إسرائيل الأمريكية - God's American Israel قضى أن يُشرِّف المغامرات الإمپريالية بين كل أمم الأرض باعتبارها تحقيقاً لخطَّته المقدسة**[٢١].

النظرة لأمريكا باعتبارها إسرائيل الجديد تتضمَّن هدفاً تخليصيا (مرتبطا بفكرة الخلاص) فى يد الله على التاريخ الأمريكى، ليس فقط لبسط رداء الحرية على الأمريكيين، وإنما لتخليص العالم - بالمعنى الحرفى للتخليص - من الطغيان، ولمصالحة البشر مع الله. وهذا القَدَر هو إذن الذى يُبرِّر توسّع السيادة الأمريكية، فكما قال الواعظ وليم إلرى شاننج [وهو من طائفة المسيحيين الموحّدين - Unitarians(*)] فى سنة ١٩٣٧م:

لا بد - دائما - أن يمارس الأكثر تحضّرا سلطة كبيرة على المجتمعات الأقل تحضّرا والمجاورة له. لكنها لا بد أن تكون سلطة للتنوير وإحراز التقدم . . . لقد كتب علينا القدر (هذه هى الكلمة التى استخدمها) أن نغطِّى القارة الأمريكية الشمالية، وفى غمرة النشوى من تلك الفكرة، لا يهمنا كثيراً وسائل تحقيق قدرنا[٢٢].

أمَا وإنَّ أمريكا نشوى بفكرة القَدَر، فإنها ليست بحاجة لأن تتردد فى استخدامها للعنف لإخضاع جيرانها وتمدينهم.

والديمقراطية فى أمريكا تطلبت أيضا توسّعا إقليميا (توسعا فى الأراضى) إذا ما استمر سيل المهاجرين الأوروبيين إليها وراحوا يبحثون عن مساحة صغيرة يعيشون عليها. فالمساحات الشاسعة من الأراضى أتاحت للمستعمرين من العمال الزراعيين والملاك الصغار والمهاجرين الجدُد الحركةَ صوْبَ الجنوب والغرب بحثا عن نصيبهم فى

(*) الذين لا يؤمنون بالتثليث (انظر: الحركة الأوروبية المناهضة للتثليث، لمترجم هذا الكتاب. مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود، ١٩٧٧م وأعيد نشره فى مقدمة ترجمة كتاب: محمد مؤسس الدين الإسلامى لچورج بوش، القاهرة، ٢٠٠٣م) - المترجم.

الحُلم الأمريكى. والمهاجرون غربا تمّ تخليدهم فى الرحلة العظمى المقدسة التى تتردد فى ميثولوچيا المرْمون. فالمرمونية كانت هى النموذج البدائى للدين الأمريكى؛ لأنها تحكى قصة فتح المهاجرين لأرض الوثنيين heathen land بمصطلحات قُدسية رؤيوية - تبين مشيئة الله فى إعادة تأسيس أمة صالحة مزدهرة من قديسى الأيام الأخيرة. وعندما تم الاستيلاء على كل الأراضى فى الغرب ووُوجه الأمريكيون - بشكل أساسى - بالإشكالية نفسها التى وُوجهت بها الإمبراطوريات الأوروپية. الفهم المتفرد للعرف الأمريكى عن الحدود الجديدة ذات المجال الفارغ فى العالم الجديد، رغم أن هذه المناطق كان يسكنها بالفعل أهلها - دعَّم ما أصبح فى أواخر القرن التاسع عشر الزحف التوسعى الفائق للإمبراطورية الأمريكية(٢٣).

وكلما بدأت أمريكا تقلِّد الإمبراطوريات الأوروپية فى توسعها المركنتالى والإقليمى، وجدت نفسها - أيضا - فى صراع مع هذه الإمبراطوريات عند ظهور الاقتصاد فى منتصف القرن التاسع عشر. وأدّى ازدهار الإنتاج العالمى إلى هبوط الأسعار، مما نتج عنه الانهيار الاقتصادى بدءًا من سنة ١٨٧٠م وحتى نهاية العقد، وكان الملمح الجوهرى للاستجابة الأمريكية هو ظهور المؤسسات المساهمة التى كانت تمثل منذ بدايتها الباكرة تحدّيا مباشرا لمبادئ الديمقراطية، والتطوعية. فبوصفها مؤسسات ظهرت قويّة واحتاجت إلى سند قانونى لتعمل بشكل مستقل، زاد عملها بشكل متزايد ضد مصالح المجتمعات الديمقراطية التى كانت - فى البداية - تمتلكها وتنظمها. لقد أصبحت منخرطة فى محاولات السيطرة على السوق، وتحديد الأسعار داخل أمريكا وفيما وراء السواحل الأمريكية(٢٤). بل إن بعض هذه المؤسسات قد أنشأت مُدنًا تمتلكها، لا يعمل المقيمون فيها فى الشركة المالكة فحسب وإنما هم مُجبرون على إنفاق كل أجورهم التى يتقاضونها فى محال وإنشاءات تمتلكها الشركة، كما أنهم يعيشون فى مساكن الشركة.

كان ظهور مثل هذه المؤسسات الأمريكية عاملا مهما فى إذكاء نار الإمپريالية والمركنتلية بحثا عن الموارد فيما وراء البحار لتعويض فشل الديمقراطية فى كبح تجاوزات اقتصاد المؤسسات البازغ على المصانع وأحْياء الفقراء فى المدن الصناعية الجديدة. وأتْبع هذا تطوير البحريّة لمنافسة الأساطيل البحرية الأوروپية. وفى سنة ١٨٩٨م بدأت

الولايات المتحدة توسعها الإقليمى الفائق. بضم هاواى التى كان يسيطر عليها بالفعل مالكو مزارع القصب الأمريكيون. وفى أعقاب الحرب الإسپانية الأمريكية استولت الولايات المتحدة على كوبا، وپورتوريكو، وجيام، وجزيرة ويك، ومانيلا فى الفليپين[٢٥]. وانتهت الحرب بأن ضمت أمريكا الفليپين فى سنة ١٩٠٢م.

ورأى رجال الدين الأمريكيون هذه الأحداث نشراً للحضارة والتمدن جرى طبقًا لما قدره الله على أمريكا:

«إن الله لم يجعل الشعب الأمريكى هو الأعظم قوة بين البشر لمجرد أن يأكلوا ويموتوا هكذا ببساطة. إن الله لم يُعط جنسنا القدرة العقلية على التنظيم، ولم يهيّئ قلوبنا للسيطرة بدون هدف وبدون نتيَجة مرجوّة! لقد أوْكل إلينا مهاما بقدر ما وهبنا من مواهب. . . لقد جعلنا سادة الحضارة حتى نتولى إدارتها»[٢٦].

فالاعتقاد الوثيق فى تفوق الحضارة الأمريكية السياسى والروحى امتزج بالرغبة المركنتلية للتوسع الإمپريالى؛ لمساندة التقدم الأمريكى السريع فى المجالين: الاقتصادى والتكنولوجى. ومن هنا بدأت الولايات المتحدة تدخلاتها الإمپريالية العامة فى شئون الأمم الأخرى فيما وراء الپاسيفيكى، إذ أرسلت فى سنة ١٩٠٣م أساطيلها إلى بكين لقمع تمرّد البوكسر الذى هدّد تجارة الولايات المتحدة والمصالح الاقتصادية فى الصين، وعندما أرسلت ـ أى الولايات المتحدة ـ ١٢,٠٠٠ مسلّح إلى روسيا لمساعدة الحركة المناهضة للبلشفية فى الحرب الأهلية الروسية فى سنة ١٩١٨م[٢٧]. وبالإضافة إلى الأراضى التى انتُزعت فى سياق الحرب الإسپانية الأمريكية، فإن أمريكا لم تخطُ خُطًا حثيثة رغم هذا ـ لتطوير إمبراطورية بمزيد من التوسّع خارج حدودها، وإنما استخدمت ـ عوضا عن هذا ـ مشروع التفوق العسكرى والاقتصادي على الأمم الأخرى لبسط الهيمنة الأمريكية على أراض خارج حدودها. لم يكن الطموح الإمپريالى ينقص أمريكا، بل العكس هو الصحيح كَما يُدلّل إجناتيف الذى يقول:

«لقد كانت الولايات المتحدة هى الأمة الوحيدة التى تسوس العالم من خلال خمس قيادات عسكرية عالمية تضم أكثر من مليون مسلّح بين رجل وامرأة، فى أربع قارات، تنشر قوّات محمولة تراقب بيقظة كل محيط، وتراقب كل الدول من إسرائيل إلى كوريا

الجنوبية، وتوجّه عجلة التجارة العالمية، وتملأ قلوب كل من فى العالم وعقولهم بأحلامها ورغباتها» (٢٨).

الولايات المتحدة إمبراطورية، لكن الطبقة الحاكمة فيها وجدت طريقة جديدة وأكثر اقتصادية لتحقيق طموحاتها الإمبراطورية من الطرق التى استخدمتها الإمبراطوريات الأوروبية. لقد كوّن قادة الولايات المتحدة إمبراطورية ما بعد إمبراطورية ضم الأراضى (٢٩)، إمبراطورية لايت. [مثل سڤن أپ وسڤن أپ لايت - المترجم]. مستخدمة شبكة عالمية من القواعد العسكرية تديرها قلة من العسكريين، ومجموعة من العمليات الإدارية والسياسية المحنكة، **ومن خلالها يحكم عملاء الولايات المتحدة دولهم بطريقة يخدمون بها مصالحها التجارية والاستراتيجية**(*).

هؤلاء العملاء المحلِّيون الذين يحكمون المكسيك أو جواتيمالا أو ڤنزويلا أو كولومبيا غالبا ما ينحدرون من أصلاب الفاتحين الأصليين، وفى كثير من الحالات كان يجرى - بانتظام - إفسادهم بارتباطاتهم الاستعمارية. ولا تختلف الإمپريالية الإسپانية أو الأمريكية هنا، فهى تفضل تقليديًا **الرؤساء المحلِّين الطبقيِّين الذين سيقبلون الرشاوى، والذين يعملون من خلال الفساد ضد مصالح شعوبهم، ويعملون لتحقيق مصالح المستعمرين.**

لقد أطلق على السياسة الخارجية الأمريكية فى الأمريكات(**) اسم «عقيدة مونرو - Monroe Doctrine» وهى العقيدة السياسية التى كان الرئيس الأمريكى چون مونرو أول من أعلنها فى سنة ١٨٢٢م. وقد عبَّرت هذه العقيدة السياسية عن الزعم بحق الولايات المتحدة فى أن تسود دون تدخل من العالم القديم أوروپا - العالم الجديد لنصف الكرة الأرضية الغربى - الأمريكات والپاسفيكى (٣٠). باتباع هذه العقيدة السياسية، ضمت الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر المكسيك وتكساس - فى البداية - ثم پورتويكو وكوبا، وبعدها پنما، وشنت حروبا فى نيكاراجوا. كل هذا أتاح للجمهورية الأمريكية سيطرة إمپريالية شبيهة بالسيطرة الإمبراطورية لبريطانيا أو هولندا أو إسپانيا أو البرتغال. لكن العقيدة السياسية لمونرو كانت تنطوى على زعم بأن

(*) يسمى تشومسكى أولئك العملاء - «المفوضون - Commissioners» أى القومسيونجية - المترجم.

(**) أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية - المترجم.

الإمبراطورية الأمريكية كانت أكثر «صلاحا وتقوى» من الإمبراطوريات الأوروبية الملكيّة التى تنافسها. وكان المدافعون عن الإمبراطورية الأمريكية يزعمون أنّ التوسع الأمريكى ينطوى على توسيع لنطاق الحرية التى اعتبرها الدستور الفيدرالى للولايات المتحدة كنزا مقدسا تمثل فى الفصل بين السلطات. لقد كان توسيع المبدأ الفيدرالى قد دُعِّم لتأكيد أول إمبراطورية صالحة - حقيقة - فى التاريخ البشرى. ويكمن خلف الپان - أميريكانزم (الأمركة العامة) مُثُل الحرية والحكومات المقيدة، وهما المبدآن اللذان تستخدمهما الولايات المتحدة لتحقيق الخلاص للأمريكات، بل ولكافة البشر.

من الأمّة المخلصة
إلى إمبراطورية الحرب الباردة

فكرة أمريكا بوصفها «أمّة مخلِّصة» تفرض السلام والحرية على عالم متمرّد، أكثر ما تكون ارتباطا برياسة الرئيس الأمريكى ودرو ويلسون، فهو الذى جرّ أمريكا إلى الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٧م حيث أعلن أن هذه الحرب هى المعركة الألفيّة من أجل الديمقراطية:

«لا بد أن نجعل العالم آمنًا من أجل الديمقراطية. فسلام العالم لا بد أن يقوم على حرية سياسية راسخة على أساسات متينة. ليس لدينا أغراض أنانية نسعى لتحقيقها. لا نريد أن نغزو أحدا ولا أن نسيطر على أحد. ولا نريد تعويضات لأنفسنا أو تحقيق مزايا لأنفسنا، ولا نريد تعويضات ماديّة عن التضحيات التى نقدمها بملء حريتنا، فنحن لسنا إلاّ من بين المناصرين لحقوق الجنس البشرى»(٣١).

وقد تبنى الكتَّاب من الإكليروس وكتَّاب التراتيل الدينية حماسة ويلسون فى إعادة تجديد قدسيّة السياسة الخارجية الأمريكية. فقد كانت القوات المسلّحة الأمريكية هى «الكنيسة الأمريكية فى فرنسا» وفق مقولة أحد القسس الأسقفيين، بينما صوّر كتّاب الترانيم الجمهورية الأمريكية «كمحاربة من أجل تحقيق الحرية للعالم أجمع» فى «معركة يخوضها الله»(٣٢).

وبعد الحرب استخدم ويلسون لغة رؤيوية ليصف قيادة أمريكا لعُصبة الأمم فقد أعلن: «لقد حدث ما حدث بغير إدراك منا. إنما هى يد الله التى قادتنا فى هذه

الطريق»[٣٣] فبعد «هرماجدون» الحرب العظمى أصبحت أمريكا - على حد تعبير ويلسون «أمة عظيمة تسير فى مقدمة موكب كبير» هدفه «تلك الذُرَى التى تتربّع عليها الأنوار الخالصة لعدالة الله ولا سواها» وقد منح الله أمريكا:

«. . . قوّة محررّة، قوّة تُظهر للعالم أنه عندما وُلدت أمريكا فإنها حقا كانت إصبعا يشير إلى البلاد التى يقطنها أناس يمكنهم أن يحيوا بعضاً من تلك الأيام، وأن يعيشوا سعداء بالحرية، ينظر بعضهم لبعض بعيون المساواة، فليس من أحد متربع فوق رقابهم، وليس من شعب مجبر على قبول سلطة لم يخترها. نسمو إلى مستويات حضارية حتى لا يكون هناك مزيد من الحروب، وإنما يتحتم أن يحكم الناس أنفسهم بسلام وصداقة واطمئنان»[٣٤].

فالنتيجة المرتقبة كانت هى نهاية كل الحروب وبالتالى «تحرير العالم كله وتخليصه».

وخلال سنوات الانهيار الاقتصادى العالمى، دخلت أمريكا فى فترة انعزال نسبى عن الشئون الدولية، رغم أنها استمرت فى احتلالها لمناطق فى الپاسفيك وفى الكاريبى ومن أمريكا الوسطى واللاتينية التى كانت قد ضمتها فى فترات سابقة. ولم يكن سوى هجوم كالهجوم الذى واجهته أمريكا فى پيرل هاربر فى اليابان، هو القادر على إعادة أمريكا للاندماج فى أحداث العالم أثناء الحرب العالمية الثانية. وبانتهاء الحرب مع اليابانيين والنازية، كانت أمريكا قد نظمت قواتها المسلّحة لتغطى الكرة الأرضية لتتمكّن من قوْلبة السياسة الخارجية الأمريكية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. لقد ارتدى الرؤساء الأمريكيون عباءة «زعيم العالم الحر» فى حرب عالمية جديدة، ضد السوڤييت فى هذه المرّة، بحجة أن السوڤييت يتبعون خطة لغزو العالم، وهو الأمر الذى تملك أمريكا وحدها الرغبة والإمكانات لاحتوائه[٣٥].

لقد كان الحدث المهم الذى كان بمثابة تيار كهربائى مفاجئ، والذى حشد الأمريكيين أثناء الحرب الباردة هو أول تجربة سوڤييتية لسلاح نووى فى سنة ١٩٤٩م، هذا الحدث أظهر جنون الپارانويا فى أمريكا (الپارانويا الأمريكية) لدرجة أنَّ مايك ديڤر يمكن أن يكون قد قدَّم لنا أكثر الرؤى المسبَّقة أهمية لردِّ فعل الأمريكيين عقب أحداث الحادى عشر من سپتمبر سنة ٢٠٠١م:

«كان رد فعل مجلس الأمن الوطنى الذى عقده ترومان سريعا «NSC-68»، لقد خُصص اعتماد مفتوح لإنشاء ما أسماه الرئيس أيزنهاور بعد ذلك «مجمع الصناعات العسكرية»، وفى الوقت نفسه استغل السيناتور چوزيف مكارثى، ومدير مكتب التحقيقات الفيدرالى - چ. إدجار هوڤر الخوف الشعبى للبدء فى ملاحقات لا ترحم لعدو فى الداخل enemy within»[٣٦].

وبالنسبة لترومان لم يكن هناك سوى جانبين للحرب الباردة، تماما كما أعلن بوش بعد ذلك بأنه لا يرى إلاّ جانبين للحرب على الإرهاب: أولئك الذين يقفون مع الولايات المتحدة، وأولئك الذين يقفون ضد الولايات المتحدة.

تقدم عقيدة تحريم(*) العدو للولايات المتحدة العذر فى اعتبار قمع المخالفين فى الداخل، وشن الحرب لاحتواء الشر فى الخارج باعتبارها حرب بقاء للشعب الأمريكى. لكن هذه الاستجابة هى فى الأساس مزعجة للديمقراطية والحرية، وهما القيمتان اللتان يُقال إن أعداء الولايات المتحدة يهددونهما[٣٧].

رأت وكالة المخابرات المركزية والنخبة فى واشنطن فى كل تهديد للمصالح الاقتصادية والسياسية لأمريكا دليلا على التغلغل الشيوعى، فكان جنون الشك والخوف الذى أذكى سيل الاتهامات سيئة السمعة التى وجهها السناتور مكارثى لأفراد اتهمهم «بأنشطة غير أمريكية» أو أنشطة خارجة عن الروح الأمريكية، تلك الاتهامات المواكبة للسياسة الخارجية الأمريكية التى كان محورها مناهضة الشيوعية. وبهذه الطرق بدأت الولايات المتحدة تعكس صورة إمپريالية توسعية - بمعنى الكلمة - وقمعًا جماعيا لحريات الأمم الأخرى، بل وقمعا لبعض مواطنيها المعارضين، وهو الأمر الذى كانت تتهم السوڤييت بارتكابه. لقد شهدت الحرب الباردة زيادة كبيرة - جذرية - فى التدخلات الأمريكية العسكرية، وفى زيادة النفوذ الاقتصادى والسياسى الأمريكى فى أمريكا الوسطى وأمريكا اللاتينية وفى الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا وأجزاء من أفريقيا. وعلى هذا فقد كانت السياسة الخارجية الأمريكية أيضا قد تحولت إلى أداة للإخضاع الشمولى، وهى السياسة نفسها التى تبناها السوڤييت. لكن طالما أنَّ النخبة

(*) يعنى المصطلح فى المسيحية الطرد من الكنيسة، أى من رحمة الله، وذلك يشابه لغة الله فى الإسلام - المترجم.

الأمريكية تستطيع إقناع نفسها بروح الما بعد ألفية التى قال بها ويلسون، والتى مؤدّاها أن إمبراطوريتهم إمبراطورية صالحة righteous فإن قضيتهم عادلة، وبالتالى فكل القتل والأعمال الوحشية وكل عمليات الإطاحة بالحكومات الشرعية - وأحيانا الديمقراطية - لإحلال ديكتاتوريات «صديقة»، كل هذا يمكن أن يبدو عادلا، طالما هو وسائل لتحقيق خير أكبر.

وكان شعب جواتيمالا هو أوّل ضحايا هذه السياسة الخارجية الأمريكية الجديدة القائمة على التدخل والتوسّع. ففى سنة ١٩٤٤م انتخب شعب جواتيمالا حكومةً اتّبعت طوال عشر سنوات برنامجا ديمقراطيا اشتراكيا، راعت فيه تطوير التعليم والشئون الصحية تطويرا شاملا، كما راعت فيه الإصلاح الزراعى [٣٨]. لكن فى سنة ١٩٥٤م اعترض ملاّك الأراضى والشركات الأجنبية - خاصّة الشركة الأمريكية المتحدة للفواكه - على أساس أن أرباحها أصبحت مهدّدة بالنقصان، فدبّرت المخابرات المركزية الأمريكية اشتعال حرب أهلية دامية. لقد قتل المجلس العسكرى الذى استولى على الحكم، والذى عيّنته المخابرات المركزية الأمريكية أكثر من مليون شخص فى الثلاثين عاما التالية للانقلاب، وهكذا تحوّل شعب جواتيمالا من شعب كان من أكثر الشعوب تعليما وديمقراطية فى أمريكا الوسطى إلى شعب من بين أفقر الشعوب وأكثرها تعرضاً للقمع، لا فى أمريكا الوسطى فحسب وإنما فى العالم كله [٣٩].

وبعد جواتيمالا، أتى الدور على شيلى، والبرازيل، وأورجواى، وباراجواى، والأرجنتين، فكلها شهدت حكومات منتخبة أطاحت بها ميليشيات يمينية تدعمها الولايات المتحدة. لقد جاء الرئيس الشيلى - المنتخب ديمقراطيّا - سلڤادور أليندى فى سنة ١٩٧٠م بسياسة اشتراكية كانت تبدو ضارة برجال الأعمال الأمريكيين وبالمصالح الاستراتيچية الأمريكية، فتبنّى هنرى كيسنچر حزمة من الاستراتيچيات «للحد من قدرة الرئيس الشيلى على تطبيق سياساته المضرّة بمصالح الولايات المتحدة» مستهلا هذا بانقلاب فاشل فى سنة ١٩٧٠م [٤٠]، **وفى ١١ من سبتمبر سنة ١٩٧٣م قامت المخابرات والقوات المسلحة الأمريكية - معًا - مع العناصر المتطرفة فى شيلى بتنظيم ما وصفه الملحق البحرى بأنه «الانقلاب الكامل» أو «يومنا الحاسم Our D - Day» حيث تم اغتيال أليندى ليحل محلّه الچنرال پينوشيه [٤١]. وتبع هذا أكثر الفترات عنفا فى**

تاريخ شيلى الحديثة، حيث أعدم پينوشيه الآلاف وسجن عشرات الآلاف وعذبهم، واختفى آخرون أو هربوا من البلاد، وكانت هذه الأعمال تلقى دعما من كيسنچر وإدارة نيكسون(٤٢).

ولم تكن التدخُّلات فى فترة الحرب الباردة - بطبيعة الحال - قَصْرًا على الأمريكات، فنفوذ الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط كان محدودا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، لكن الولايات المتحدة بدأت بعد ذلك تلعب فى الشرق الأوسط دور بريطانيا الإمپريالى، ذلك أن بريطانيا خرجت من الحرب فقيرة فقرا مُدْقعا مما أعجزها عن إمكانية تسيير أمور إمبراطوريتها. وكانت مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط قابلة للشرح فى ظل ظروف الحرب الباردة. لكن كان هناك عاملان حيويان يقودان سياسة الولايات المتحدة فى هذه المنطقة، لا يتعلقان بالشيوعية أو الاتحاد السوڤييتى، هذا فى الظاهر على الأقل. **هذان العاملان الحيويّان هما: التزام الولايات المتحدة بالوطن اليهودى jewish homeland الذى له جذور عميقة فى الفكر الألفى المسيحى الأمريكى المتعلق بنهاية الزمان، أما العامل الثانى فهو شهية الولايات المتحدة النَّهمة للبترول. وكان هذا العامل الثانى هو الذى دفع الولايات المتحدة لتدبير انقلاب أطَاح بحكومة منتخبة ديمقراطيا فى إيران فى سنة ١٩٥٣م، وهو الذى دفعها إلى تنصيب أو دعْم الديكتاتوريات وأنظمة الحكم الشمولية فى الشرق الأوسط بما فى ذلك نظام الحكم الإسلامى - سيئ السمعة - فى السعودية العربية**.

والمناسبة التى أتاحت التدخل الأمريكى فى إيران كانت هى أن حكومة رئيس الوزراء محمد مصدّق - وهى حكومة منتخبة ديمقراطيا - بدت تشكل تهديدا للمصالح البريطانية والأمريكية؛ لأنها تحدَّت حقوق الشركة الأنجلو إيرانية للبترول، التى أصبح اسمها فى وقت لاحق شركة البترول البريطانية (بريتش پتروليَم) - فى استخراج البترول من الأراضى الإيرانية مقابل ١٠٪ فقط من العوائد للحكومة الإيرانية(٤٣). **وعندما أمَّم مصدّق حقول النفط ومصافى تكريره، قرَّر البريطانيون بزعامة ونستون تشرشل محاولة إزاحته ليحل محلّه شاه إيران الذى كان فى المنفى آنئذ. وخوفاً من تدبير البريطانيين لانقلاب - وقد كانوا يدبرونه بالفعل - أغلق الإيرانيون السفارة البريطانية فى طهران، فلجأ البريطانيون للمخابرات المركزية الأمريكية لإنجاز المهمّة، فتم إنجازها على خير ما يُرام فى يونيه سنة ١٩٥٣**(٤٤). وفى اتفاقية مع الدكتاتوريّة الإيرانية المعيّنة،

أعاد البريطانيون والأمريكيون - بعد ذلك بعام - الهيمنة الأجنبية على إنتاج البترول فى إيران مقابل ٢٠٪ للإيرانيين بينما يحصلون هم على ٨٠٪.

ونشر حكم الشاه القمعى التعذيب على نطاق واسع، وزادت أحكام الإعدام، حتى إن الشاه كان هو أكبر قاتل قانونى فى سبعينيات القرن العشرين، إذ أن أحكام الإعدام هذه كانت تصدرها محاكم. وكان السافاك SAVAK (البوليس السرى الإيرانى) - المسئول عن كثير من هذه الجرائم - يتلقى تمويلاته المالية من الأمريكيين، ويتدرب فى الولايات المتحدة، وبمساعدة وخدمات سرية من الموساد الإسرائيلى، وكانت التدريبات تشتمل على الإلمام بتقنيّات التعذيب. وبحلول أواخر السبعينيات كانت إيران فى حالة حرب أهلية، فغادر الشاه البلاد لعدّة أيام قبل العوْدة المظفّرة لآية الله الخمينى من المنفى(٤٥). وهكذا بدأت أول ثيوقراطية شيعية فى التاريخ الحديث وصارت إلهاما للإسلاميين عبْر العالم، أولئك الإسلاميون الذين عملوا على الإطاحة بحكام المسلمين الخاضعين لنفوذ الغرب. وقد أدّى استيلاء الإيرانيين على السفارة الأمريكية فى طهران واحتجاز شاغليها لأكثر من عام إلى تدهور العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران الجديدة تدهورا حادا، ولم يحدث أبدا منذ ذلك الوقت أن عادت العلاقات لسابق عهدها.

وانتقامًا من إيران الثورة ومواقفها المعادية، قدّمت الولايات المتحدة الأموال والأسلحة للدكتاتور صدّام حسين - بما فى ذلك الأسلحة الكيماوية كـ «الأنثراكس - anthrax» وتسهيلات لإنتاج أسلحة الحرب الكيماوية - دعمًا له لغزو إيران، فبدأت الحرب الإيرانية العراقية فى ثمانينيات القرن العشرين. دعمت أمريكا صدّام حسين - كما دعمت الشاه من قبله - بصفته «رجل أمريكا» ودكتاتورًا مؤيِّدًا للغرب سيضمن استمرار تدفق البترول لأمريكا. وكان صدّام من الناحية الأيديولوچية مناهضا للشيوعيين ومناهضا للإسلاميين؛ لذا فقد كان مناسبا جدا للخطط الأمريكية فى الشرق الأوسط. بالإضافة إلى أن صدّام حسين كان سنّيا وكان مستعدا لاستخدام كل وسائل القمع ضد الأغلبية الشيعية فى العراق، كما كان مستعدا فى الوقت نفسه لقهر الأكراد فى الشمال العراقى، والأكراد يُنظر إليهم باعتبارهم تهديدا لتركيا، وهى مفتاح آخر تعوّل عليه الولايات المتحدة فى المنطقة. وبسبب دعم الولايات المتحدّة للأعمال

الوحشية التى ارتكبها صدّام فى المنطقة - بما فى ذلك الإبادة الجماعية للأكراد، باستخدام الغازات المميتة فى حلابجة فى سنة ١٩٨٨م، وهو الأمر الذى وافقت الحكومة الأمريكية على إلصاقه بالإيرانيين[٤٧] - بسبب هذا تشجّع صدام حسين وأحسّ بالثقة فى محاولته ضم حقول البترول فى الكويت، تلك الحقول التى سبق أن فصلتها بريطانيا عندما منحت العراق استقلاله فى عشرينيات القرن العشرين؛ لتستخدمها شركة بريتش پتروليم. **وبدأت الحرب التى شنَّها چورچ بوش الأب على العراق من القواعد العسكرية الأمريكية المُنشأة حديثا فى المملكة العربية السعودية، والتى كانت سببا بالغ الأهمية لظهور تنظيم القاعدة، خاصة انقلاب أسامة بن لادن على أمريكا ليصبح منشقا سعوديا معارضا للوجود الأمريكى.**

من الحرب الباردة إلى الحرب المقدّسة

فى سنة ١٩٧٩م وقبل أكثر من عقد من الغزو العراقى للكويت سعت المخابرات المركزية الأمريكية فى ظل حكومة الرئيس چيمى كارتر إلى توريط روسيا فى حرب غير رابحة - بل ومستنزفة - فى أفغانستان. وكانت استراتيچية الولايات المتحدة لتحقيق هذا هى تمويل المتطرفينَ الإسلاميين من أفغانستان والمملكة العربية السعودية وغيرهما، وتسليحهم ليحاربوا من أجل حكومة راديكالية إسلامية فى أفغانستان التى لا يحكمها قانون. وفق ما قاله زبينيو بريزنسكى مستشار الأمن القومى فى عهد الرئيس كارتر كان الهدف الذى يحظى بالأهمية الفائقة، هو استثارة روسيا للتدخل، مما سيؤدى لحرب تكلّف روسيا آلاف القتلى، وتكلفها نفقات عسكرية كبيرة بدرجة تهدد وجود الاتحاد السوڤييتى ذاته[٤٨].

لقد رأت وكالة المخابرات المركزية فى الإسلاميين الناشطين فى آسيا الوسطى حلفاء فى الحرب الباردة ضد الاتحاد السوڤييتى والصين الشيوعية؛ فصبَّت الولايات المتحدة بلايين الدولارات كمساعدات، وكثيرا من المساعدات العسكرية لحركة المجاهدين (المقاومة الأفغانية) من خلال الصلات التحتيَّة بين المخابرات الأمريكية والمخابرات

الپاكستانية[٤٩]. وكانت النتيجة أن هؤلاء الإسلاميين المسلّحين من أكثر من عشرين دولة مسلمة انجذبوا إلى معسكرات التدريب الإسلامية على الحدود الپاكستانية الأفغانية. وكما يلاحظ أحمد رشيد:

«بتشجيع فعّال من المخابرات المركزية الأمريكيّة وجهاز الخدمات الاستخباراتية المتبادلة الپاكستانى ISI، اللذين أرادا أن تتحول حركة الجهاد الأفغانية إلى حرب عالمية تشنها كل الدول الإسلامية ضد الاتحاد السوڤيتى، انضم حوالى ٣٥,٠٠٠ راديكالى مسلم من أربعين دولة مسلمة فى الفترة من ١٩٨٢م إلى ١٩٩٢م للحرب فى أفغانستان. بالإضافة إلى عشرات الآلاف وصلوا إلى پاكستان للدراسة فى مدارسها. وفى آخر الأمر كان هناك أكثر من مائة ألف راديكالى مسلم غير پاكستانى قد تأثروا تأثرا مباشرا بالجهاد الأفغانى»[٥٠](*).

وكان من هؤلاء الإسلاميين الراديكاليين أسامة بن لادن، وآخرون مثله يعكسون رعاية السعودية وپاكستان والولايات المتحدة - رعاية مشتركة - لهذه الحرب الإسلامية (الجهاد). فى المدارس الپاكستانية والأفغانية التى تموّلها السعودية، تعلم المجاهدون صورة المجتمع المثالى المسلم كما كان حاله زمن محمد ﷺ فى المدينة منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة مضت، وهو المجتمع الذى حاولت طالبان فى وقت لاحق إعادة بنائه فى أفغانستان. وفى معسكرات فى أفغانستان التى تمولها المخابرات المركزية الأمريكية تدرّب المجاهدون على حرب العصابات وتقنيات الإرهاب التى لم تساعدهم فى إخراج السوڤييت فحسب وإنما ساعدتهم - بعد الحرب - فى حرب أهلية مدمّرة فى أفغانستان، كما ساعدتهم بعد ذلك فى شنّ هجمات إرهابية على أمريكا.

ومن وجهة نظر الولايات المتحدة، كانت الحرب ضد السوڤييت حربا صليبية خيّرة صالحة ضد الشيوعية «a righteous crusade against communism» وكان الإسلاميون يعتبرون الحرب ضد السوڤييت الغزاة جهادا، ومما يدعو للسخرية أنّ وكالة المخابرات المركزية الأمريكية آثرت المجاهدين على نفسها؛ لإخلاصهم وشجاعتهم

(*) كان الإعلام الأمريكى وقتذاك يُطلق عليهم «جنود الحرية»، وكانت تساعدهم الحكومات العربية والپاكستانية فى مختلف المجالات: عسكريًا، إعلاميًا، دينيًا، ماليًا - المترجم.

الانتحارية؛ مما جعلهم وكأنهم المنتصرون فى الحرب. فكما ذكر چون إسپوزيتو Esposito «بالنسبة لأمريكا فقد كان هذا جهاداً طيبا good jihad» كانت الولايات المتحدة قادرة به على دَعْم المجاهدين holy warriors وتشجيعهم مقدّمةً لهم دعما ماليا مهما وخبراء ومستشارين من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية(٥١).

إنها لمن سخرية الأقدار أن يكون تأسيس نموذج المجتمع الإسلامى المثالى على نمط العصور الوسطى والمتأثر بالنّهج السعودى - فيما بعد الحرب السوڤييتية الأفغانية - قد تلقّى دعمًا من الولايات المتحدة وتأييدا.

وساعدت المخابرات المركزية الأمريكية - عَبْر المخابرات الپاكستانية ISI - فى بناء معسكرات تدريب القاعدة، ودافعت بقوة عن مجمع كهوف تورا بورا Tora Borra Cave Complex فى الجبال بين أفغانستان وپاكستان، وموّلت تكنولوچيا الاتصالات والسلاح التى نشروها هناك. وتكنولوچيات الحرب المتقدمة هذه ساعدت - بالتأكيد - المجاهدين على طرد السوڤييت، وعززت أيضا اتجاهات العنف الفاسدة فى المجاهدين القادمين من السعودية واليمن ومصر وغيرها - تلك الاتجاهات التى كانت كامنة بالفعل. وبطرد السوڤييت، وقع المجاهدون فى فخ الحرب الأهلية الشريرة فى أفغانستان، والتى انتهت بترسيخ حكم طالبان الإسلامى المتطرف على دولة اعتراها الخراب. لكن نجاحهم فى طرد السوڤييت لم يكن صنْوا لإنجازاتهم فى مضمار الحكم، فقد فشلوا فى إقامة برلمان أو أى طريقة لإدارة البلاَد، فلم يكن لديهم خطة للنهوض بالزراعة، وإن نجحوا فى إخماد إنتاج الأفيون. لقد اعتقد الطالبان أن الإسلام هو الحل، وأنه «هو الذى سيرعى كل شىء دون حاجة إلى دولة منظمة أو خدمات مدنية»(٥٢).

وكانت السعودية - جنبا إلى جنب مع الولايات المتحدة وپاكستان - داعما آخر رئيسيا للمجاهدين وطالبان. لقد تأسست المملكة العربية السعودية فى القرن ١٨ على يد محمد آل سعود، الزعيم القبلى والمصلح الإسلامى محمد بن عبد الوهاب الذى أعطى اسمه للحركة الدينية المعروفة بالوهّابية والتى سادت السعودية منذ ذلك الحين(٥٣). والإسلام الوهابى هو الأكثر تقويّة (پيوريتانية) والأكثر اعتمادا فى رؤاه المستقبلية على الجهاد من بين كل أشكال الإسلام الأخرى، وبتأثير الإسلام الوهابى أصبحت

السعودية إحدى أكثر الدول طغيانا واستبدادا لا فى الشرق الأوسط فحسب وإنما فى العالم كله. وقامت الوهابية بتمويل آلاف المساجد والمدارس فى مختلف أنحاء العالم؛ لتنشر التطرف البغيض وتستأصل أشكال الإسلام الأخرى المتسمة باللين والتسامح، فكما لاحظ رشيد: «ما تصدّره السعودية من وهابية قد ارتد الآن إلى مُصدِّره ليقوّض بشكل متزايد سلطة الأسرة المالكة. فلم يستقبل الشعب السعودى بآذان صُم انتقادات بن لادن للحكم السعودى بالفساد وسوء الإدارة[٥٤]. يُعد التغير الداخلى فى العلاقة بين الأوتوقراطية الملكية والإسلاميين مفتاحا أساسيا فى فهم ما قبل التورط السعودى فى الهجوم على أمريكا، والعنصر الآخر - الذى يُعد مفتاحا للفهم أيضا - هو زيادة الخلاف بين بن لادن ومسانديه السابقين من السعوديين والأمريكيين.

وبعد طرد السوفييت من أفغانستان عاد بن لادن عودة البطل إلى السعودية واستُقبل بترحاب، لكنه وجد عند عودته لبلاده فسادًا متزايدا بين النخبة الحاكمة التى كانت تعيش فى أبّهة، بينما غالبية الشعب السعودى تعانى فقرًا نسبيا، إذ كانت البطالة والفقر بين سكان الحضر قد انتشرا فى السعودية فى تسعينيات القرن العشرين، وجمع بن لادن حوله أتباعا من الشباب السعودى من الطبقة المتوسطة، الذين اعتنقوا أفكارا راديكالية بسبب تزايد التمايز بين الأفراد وتزايد القلق الاجتماعى. **وكان غزو صدّام حسين للكويت هو الحدث الذى حثّ بن لادن على بدء الحرب المقدّسة - الجهاد - ضد البيت السعودى الحاكم والولايات المتحدة التى تدعمه. لقد اقترح بن لادن على الملك فهد أن يجهز جيشا لطرد العراقيين من الكويت، لكن السعوديين قبلوا عرضا أمريكيا، وسمحوا للقوات الأمريكية بإنشاء قواعد عسكرية فى جنوب السعودية لتنطلق منها مواصلةً حرب الخليج[٥٥]. وبالنسبة لـ «بن لادن» وأتباعه كانت هذه القواعد العسكرية احتلالا أجنبيا لأرض المسلمين المقدسة، التى يعد احتلالها إهانة وتجديفا على محمد ﷺ[٥٦]. غادر بن لادن العربية السعودية، وذهب أولا إلى السودان، ثم عاد إلى أفغانستان حيث اندمج فى سنة ١٩٩٦ مع القيادة العليا لطالبان، وأعلن رسميا «الجهاد» ضد أمريكا. كانت أهدافه هى إخراج القوات المسلحة الأمريكية من أرض النبى المقدسة وإسقاط بيت آل سعود الفاسد، وحكومات الشرق الأوسط الأخرى الفاسدة التى تدعمها الولايات المتحدة[٥٧].**

ونقل بن لادن فى سنة ٢٠٠٢م فى «خطابه للشعب الأمريكى» قضية احتلال اليهود لفلسطين ليجعلها فى مكان محورى، بعد أن كان حديثه موجَّها للولايات المتحدة وأوروبا، فقد أعلن فى إجابة له عن سؤال طرحه: «لماذا نحاربكم؟» بأن أجاب قائلا: «لأنكم تهاجموننا، وأنتم مستمرون فى مهاجمتنا» ووصف بالتفصيل مدى دعْم الولايات المتحدة لهجمات حكومة أريل شارون وجيشها ضد الفلسطينيين[٥٨].

وحمّل بن لادن أمريكا مسئولية قمع الفلسطينيين بدعمها الاقتصادى والعسكرى لإسرائيل. وهناك بعض الحقيقة فى هذا. فسُدس المساعدات المالية الخارجية الأمريكية موجَّه لإسرائيل رغم أن إسرائيل تحتل المكانة رقم ١٦ فى قائمة أغنى دول العالم. وبالإضافة إلى المساعدات الأجنبية الضخمة، تتلقّى إسرائيل ١,٨ بليون دولار سنويا من الولايات المتحدة على شكل مساعدات عسكرية[٥٩]. ويذهب ثلث آخر من المساعدات الأمريكية فيما وراء البحار لجيران إسرائيل - وإلى مصر والأردن بصفة أساسية - لبسط النفوذ الأمريكى، ولمنعهم من القيام بأعمال عدائية ضد إسرائيل، فكما لاحظ روبرت فيسك أن هذه الهبات السخيّة الأمريكية تشترى بها للمصريين حكومة تزعم أن رئيسها حصل على ٩٨٪ من أصوات جمهور الناخبين، بينما يعانى معارضوه فى السجون أو يحرمون من القيام بدور فى العملية الديمقراطية[٦٠]. وعلى هذا فقد صوّر بن لادن هجوم القاعدة على الأمريكيين بوصفه عملاً من أعمال الدفاع: «الرسالة هى نشر كلمة الله لا ذبح الناس، فنحن أنفسنا هدف للقتل والتدمير والوحشية، كل ما نفعله هو أننا ندافع عن أنفسنا. إنه جهاد دفاعى. نريد أن ندافع عن شعوبنا وعن أرضنا، لذا فنحن نقول: إذا لم نحظَ بالأمن فالأمريكيون أيضا لن يحظوا بالأمن. هذه عبارة بسيطة يمكن لأى طفل أمريكى أن يفهمها. عش ودعنى أعيش».

ففى رأى بن لادن أن المسلمين ليسوا هم المعتدين، وإنما الأمريكيون، فهم الذين نهبوا ثرواتنا ومواردنا وبترولنا، وهم الذين يهاجمون الدين الإسلامى[٦١].

ويصوّر بن لادن نفسه كشخصية مؤثرة (كارزمية) لا نظير لها، تحارب أمريكا القوية وحلفاءها من أجل إحلال نظام إسلامى جديد، ويرتدى كثيرون من الأولاد المسلمين قمصانا عليها صورته. لكن بدون دعم الأمريكيين للبيت السعودى، وبدون دعم الأمريكيين والسعوديين لإنشاء تنظيم القاعدة وقواعده فى أفغانستان، ما كان بن لادن

وشبكته من المتطرفين بقادرين على الحصول على الموارد لمهاجمة أمريكا، بل وما كان لتنظيم القاعدة - الممتد فى أرجاء العالم - وجود. وكان للمخابرات المركزية الأمريكية منذ مدّة طويلة كلمتها فى هذا النوع من النتائج غير المتوقعة لعملياتها السرّيّة «Blowback»(٦٢). فطرق المخابرات الأمريكية تجعلها تتعامل مع عناصر فاسدة ليست محل ثقة - وهذا أحد الملامح التقليدية للإمبرياليّة. **فالإمبراطورية الأمريكية تشبه تماما الإمبراطورية الرومانية، من حيث حاجتها إلى عملاء محليين يتعاونون معها، وهى تريدهم فاسدين قابلين للرشوة يعملون ضدّ شعوبهم. لهذا السبب - على وجه التحديد - فإن أمريكا سواء فى حروبها الإمپريالية السرية أو العلنية، تجد نفسها تساند أولئك الذين تعرف شعوبهم أنهم عناصر سيئة. ولم يكن هذا على أية حال رؤية إدارة بوش عن أصول تنظيم القاعدة**(٦٣).

السياسات الرؤيوية الحديثة

الإسلامية «Islamism» ليست بطبيعة الحال أمريكية الأصول. لكنها تشارك أمريكا فيما هو أكثر من الدعم المالى. فكما أنّ للعلمانيين، واليمين المسيحى فى أمريكا رؤية للتاريخ ونهايته، فإننا نجد أيضا أن الإسلاميين يرون أنفسهم مرتبطين بمعركة عالمية رؤيوية للتاريخ. وفى سنة ١٩٨٩م، نشر فرانسيس فوكوياما مقالا كان له تأثير كبير، يحمل عنوانًا رؤيويًا هو «نهاية التاريخ» زعم فيه أنه مع نهاية الحرب الباردة، انتهت المعركة الأيديولوچية على معنى الحداثة؛ لأن السوق الحرة قد انتصرت على اشتراكية الدولة(٦٤). فرأسمالية السوق الحرة الأمريكية فى هذه الرؤيا هى الشكل النهائى للاقتصاد السياسى، فى تطور التاريخ الإنسانى. وساق فوكوياما الأدلّة - تماما كما فعل البيوريتانز القائلون بما بعد الألفية - ليؤكّد أن أمريكا هى هدف التاريخ. ويشترك مع فوكوياما فى رؤيته هذه - الآن - عدد كبير جدا من السياسيين من كل شرائح المجتمع الأمريكى، بما فى ذلك اليمين الدينى الذى ساق الأدلّة على الشرعية القُدسيّة للسياسة الخارجية الأمريكية المعادية بشدّة للشيوعية، والمؤيدة لإسرائيل، وللرأسمالية، وللسيادة الأمريكية على العالم. ويحاجج جراى باوير داعية التليفزيون الإيڤانجليكى بأن انتشار الرأسمالية الأمريكية والدين الأمريكى عبر العالم، يُعد مؤشّرا على اقتراب نهاية التاريخ، وعلى اقتراب تفويض يسوع المسيح بتنصير كل الأمم قبل نهاية الزمان.

يرى باوير وآخرون مثله «العولْمة هي تحقيق للنبوءات الرهيبة الواردة في الكتاب المقدس، والتي تؤذن بعودة يسوع المسيح، وبداية معركة هرماجدون»[٦٥]. وهذا يضيف التفافًا مهمًا جديدًا لإعلان فوكوياما نهاية التاريخ. وحيث إنَّ نظرة فوكوياما الرؤيوية تعتمد على التقدميّة التنويرية وتنطوى على الزعم بأن التاريخ قد اتخذ شكله الأيديولوچى النهائى، فإن اليمين الدينى يعتقد أن نهاية الحرب الباردة تعنى حرفيا اقتراب نهاية العالم.

المتدينون المدافعون عن سيطرة أمريكا على العالم، وقراءة انتشار الرأسمالية الأمريكية كنوع من التبشير الذى ينبئ بنهاية التاريخ - كل ذلك يُذكرنا بشكل ملحوظ بعقائد الإسلاميين الراديكاليين التى ألهمت المؤسسين الإسلاميين لتنظيم القاعدة. فكما يُدلّل چون جراى، فإن الإسلاميين المحدثين يشتركون مع الرأسماليين الليبراليين الجُدد واليمين الأمريكى المسيحى فى أنهم مسئولون عن التاريخ، فالإسلاميون المحدثون يعتقدون - كما تبين أيديولوچيتهم وممارساتهم السياسية - أن التاريخ لن ينتهى قبل انتصارهم[٦٦]. وهم أيضا يشتركون مع الرأسماليين الليبراليين الجُدد فى الرغبة فى طَمْس الأشكال المختلفة للحضارة والسياسات والقيَم. إنهم يعتقدون أن قَدَر البشرية موجّه إلى نسق عالمى واحد من العقائد والشعائر، وأنهم يمثلون طليعة ثورية أوْكل الله إليها ضم بقية البشرية إلى الصف؛ ليكونوا جميعا مع مسار المستقبل الذى يدركون هم وحدهم مراميه.

وتكمن أصول الإسلامية فى الحركات الإسلامية المناهضة للاستعمار والحركات الإسلامية الوطنية - مثل جماعة الإخوان المسلمين المصرية وجماعة الإسلام الجنوب آسيوية. اتحدت هاتان الجماعتان فى الشّك في الحكام المسلمين، وفى المعلمين الذين سعوا لإيجاد حلول وسط بين التعاليم الإسلامية والمقولات الثقافية والاقتصادية والسياسية، أو تبادلوا المصالح مع القوى الاستعمارية الغربية فى فترة الاستعمار أو بعده. وبدأ المفكرون المسلمون فى منتصف القرن العشرين فى التحقق من أن تقليد الغرب لم يؤدِّ إلى الازدهار، بل الأقرب للصحة أنه أدّى إلى وضع بلادهم تحت مستوى التطور المطلوب، كما أدّى للخضوع للغرب - حتى فى سياق ما يُفترض أنه بعد الإمبريالية[٦٧]. وكان رد فعلهم هو العودة إلى تراثهم كمصدر لهويّة جديدة، ومجال «الجهاد» جديد على مختلف الأصعدة الأخلاقية والسياسية والروحية ضد السيادة

العالمية للثقافة الغربية والرأسمالية، ضد التسمم الغربى «Westoxification» على حد تعبير المفكرين الإيرانيين(٦٨). سعى الإصلاحيون الإسلاميون إلى إعادة ضبط الممارسات الأخلاقية والدينية للمسلمين، وإعادة تنظيم دولة المسلمين واقتصادها على وفق ما زعموا أنه الخطوط الإسلامية التقليدية، والتى تناقض التأثيرات الاستعمارية والتأثيرات الغربية فيما بعد المرحلة الاستعمارية.

وعلى هذا فالتعاليم الإسلامية الجديدة ليست هى ببساطة إعادة ولادة للإسلام التقليدى، وإنما الأقرب للصحة إنها محاولة لشد الإسلام التقليدى إلى حركة ثورية مدينة لماركس أكثر مما هى مدينة لمحمد ﷺ(٦٩). والمفكرون المسلمون - وكثيرون منهم تعلموا فى المدارس الإصلاحية فى مصر أو على يد معلمين درَّسوا فى هذه المدارس - قد أعادوا توظيف التراث الإسلامى ليخلّصوه من الدوران فى دائرة التأثيرات الاستعمارية أو ما بعد الاستعمارية. لقد رفضوا الفصل الاستعمارى بين المجال العام العلمانى الذى نظمه الأوروبيون كنظام مستقى من التطبيقات الاقتصادية والقانونية من ناحية، والمجال الشخصى المتعلق باللباس والعلاقات بين الجنسين والطعام وممارسة الطقوس الدينية(٧٠). هذا هو السبب فى الصراع الذى حدث أول الأمر بين الإسلام الإصلاحى والممارسات الإسلامية السائدة حول طريقة اللباس والفصل بين الجنسين، أو الصراع الذى حدث بين الأقليات المسلمة والسلطات المدنية فى دول مثل فرنسا وإسپانيا، حول هذه المسائل نفسها. تلك المصادمات الرمزية الباكرة هى المواجهة الأولى لبرنامج إصلاحى أكبر، تطور فى دول مثل السعودية وإيران وپاكستان ونيچيريا والسودان، وفى ولايتين من ولايات ماليزيا إلى مشروع نظامى لإخضاع كل المجتمع - بمن فيه من غير المسلمين - للشريعة الإسلامية.

وكثيرون من الذين انجذبوا للإسلامية الراديكالية إنما هم من المهاجرين الرِّيفيين الذين وصلوا حديثا للمدن الصناعية، وكانوا قد غادروا قراهم التقليدية بفعل قوى الحداثة على الصعيدين الاقتصادى والتقنى، تلك القوى التى فشلت الحكومات الإسلامية فى حمايتهم منها، أو كانت غير قادرة على تقديم الحماية اللازمة لهم. تجربة الفقر والتبعية الاجتماعية بين سكان المدن الجدد هؤلاء جعلتهم ينفتحون على أشكال من التديّن ذى طابع قتالى لتحدى العلاقة المفترضة بين التقدم الاجتماعى والحداثة

والتغريب «Westernisation» فى مجتمعاتهم[٧١]. وثمّة إسلاميون راديكاليون آخرون هم من العائدين إلى بلادهم من الغرب الذى درسوا فيه، وكانت التجربة التى خاضوها فى الغرب هى سبب راديكاليتهم. ففى مقارالإقامة المهيأة للطلاب، غالبا ما كانوا يتأثرون بالراديكاليين الإسلاميين الذين يستغلون إحساس الطلبة الجدد بالغُربة فى وسط ثقافى مختلف، خاصة ما يتعلق بالجنس، وحقيقة أنهم بعيدون عن التأثير المعتدل فى بلادهم - لتحويلهم إلى إسلاميين راديكاليين يكافحون ضد الغرب، وضد الحكام المسلمين المتآلفين مع الحضارة الغربية.

وفكرة «الجهاد» فكرة محورية بالنسبة لقضية الإسلاميين القتالية. وكلمة الجهاد تعنى حرفيا الكفاح، لكنها تقليديا لا تشير إلى الحاجة للعنف، بل العكس فهى تشير إلى الكفاح الأخلاقى والروحى الذى يبذله المسلم ضد الشهوات، وضد كل ما يهدد الحياة النقية القُدسيّة. لكن الجهاد يشير - على وفق تكييف سيد قطب، الزعيم المسلم السنى المصرى - إلى معركة قتالية داخل الإسلام نفسه من أجل أسلوب حياة إسلامى حقيقى، ومن هنا يأتى النضال ضد الغرب وحلفائه من الحكام المسلمين، لقد درس سيد قطب فى أمريكا واشمأز مما اعتبره فراغا روحيا، وإباحية جنسية. وعاد إلى مصر حيث وضع كتابه معالم على الطريق، وهو كتاب يُقرأ على نطاق واسع. كتبه فى السجن أيام حكم عبدالناصر. لقد كتب ذاكراً أن المسلمين - حكاما ومحكومين - قد فرطوا بحلول وسط فى دينهم مع الغرب اللاأخلاقى، وعلى هذا أصبحوا فى «جاهلية» أى أصبحوا يعيشون فى حالة جهل بتوجيهات الله وتعاليمه. والإسلاميون المتنوّرون عليهم واجب النضال ضد هؤلاء المسلمين الجاهلين ليعيدوا تأسيس الإسلام كنهج حياة (وغالبا ما يطلق على مَنْ أسموهم بالمسلمين الجاهلين - من باب الإهانة - كَفَرة).

وكان سيد قطب متأثرا بالمفكر الهندى [المولد] المسلم مولانا المودودى الذى أسس شبكة جنوب آسيا الإسلامية والتى اتّهم زعيمها فى أندونيسيا بترتيب تفجيرات بالى فى سنة ٢٠٠٢، المودودى ذو تأثير كبير فى الإسلامية الحديثة، لأنه هو أوّل من شرح بالتفصيل معنى الجهاد مشيرا إلى نضال عسكرى ضد القوى الاستعمارية والمتعاونين معها من المسلمين. وطوّر المودودى نهجًا إسلاميا باعتبار الإسلام أسلوب حياة كامل يناقض منهج تبعيّة المسلمين للاستعمار فى أمور القانون والسياسة والاقتصاد والأفكار

الدينية والممارسات. وانساب قلمه بتفاصيل عن الاقتصاد الإسلامى والسياسات الإسلامية والدستور الإسلامى والتى بها جميعا يتمكن المسلمون من العيش على وفق الشرعية الإسلامية المستقاة من القرآن المُوحَى به وتعاليم النبى ﷺ .

وبالنسبة لسيّد قطب فإن النضال من أجل هذا النهج فى الحياة (النهج الإسلامى) ينطوى على «إعلان عالمى بتحرر الإنسان من عبودية الآخرين؛ بترسيخ سيادة الله وهيمنته على العالم، وإنهاء عجرفة الإنسان وأنانيته؛ وتضمين حكم شريعة الله فى أمور البشر[٧٢]».

تشير لغة سيد قطب الرؤيوية وخطابه العدوانى إلى أنه تصورّ أن النضال سيتضمن استخدام العنف ضد أعداء الإسلام بما فيهم دول المسلمين الفاسدة: إنها مسئولية المسلمين الإصلاحيين أن يتخلّصوا من مثل هذه الدول تماما، بقصد أن يتمكن الإسلام النَّقى من الزعم بحقه فى كل الأرض the whole earth فمن المطلوب أن يدخله كل الناس وأن يغمر العالم[٧٣]. ويرى سيد قطب أن هذه الحرب من أجل إسلام عالمى جديد هى «جهاد» إسلامى، معناه الحقيقى - ليس بالضبط حركة دفاعية - كنضال من أجل حكم الله فى حركة لإزاحة الطغيان، وتقديم حرية حقيقية للبشر، باستخدام كل إمكانات عملية متاحة[٧٤]. وخطاب بن لادن يحمل أصداء قوية لهذه الفلسفة الإسلامية عن فتح العالم. وعلى أية حال فإن دعوى بن لادن ودعوى سيد قطب من قبله أن يكون المسلمون متمسكين بتراثهم هى دعوى موضع شك عميق. فعندما يقترحون - أو يبدأون كما فى حالة بن لادن - نضالا ثوريا عنيفا ضد حكومات مسلمين، وضد حكومات غربية، فإنهم لا يستوحون كثيرا من تعاليم القرآن، وإنما يستوحون أكثر من البلشفية والماركسية. فكما افترض جراى فإنهم فى الوقت الذى يزعمون فيه أنهم ضد الغرب، فإنهم يشاركون خصومهم الغربيين فى مقولة إن «العالم يمكن إعادة تشكيله بعمل إرادى»[٧٥]. وهناك أيضا تواز مهم بين المشروع الإسلامى لإعادة تشكيل العالم، والمشروع الرأسمالى الليبرالى الجَديد للتجارة «الحرة» وإعادة ترتيب العالم، والدفاع عنه بواسطة مكائد المحافظين الجدد الذين يُسيِّرون الآن السياسة الخارجية الأمريكية، والذين نفذوها فى ظل حكومة بوش بتوجيه رُؤيوى واضح. فهدف بن لادن مثل هدف بوش وتشينى، ورامسفيلد، وولفوڤتس - وهو فتح العالم

والسيطرة عليه. **إنهم أيضا** سيسقطون كل أعداء أمريكا وكل عدو «الحرية» التجارة والديمقراطية والحرية فى أى مكان فى العالم، وحيثما وجدوا، وبأى أسلوب قد يكون مناسبا. بوش يعتقد بحماس شديد العقيدة نفسها التى اعتقدها ويليام شاننج أو وودرو ويلسون، والعقيدة نفسها التى اعتقدها چيرى فالويل أو رونالد ريجان، أن قضية أمريكا قضية عادلة وصادقة؛ لأن أمريكا هى أصدق نموذج على ظهر الأرض للقيم المقدسة؛ قيم الحرية والديمقراطية. إن إيمان بوش الشديد بقضيته هذه يساوى إيمان سيد قطب أو بن لادن بقضيتهما، فكما يقترح ستانلى هاورڤاس: فإن ما هو خطير حول هذه القيم هو بالتحديد الاعتقاد بأنها عالمية، وأن كل العقلاء لا بد أن يعتنقوها، وبالتالى فإن كل من يرفضها غير عقلانى، بل ومخبول(٧٦). وعلى هذا فيبدو من المعقول جدا أن يذهب للحرب لفرض قيمتى الحرية والديمقراطية. وبتعبير آخر فإن تحوّل الحلم الأمريكى إلى حرب عالمية مع أولئك الذين يقال إنهم يعارضون المصالح الأمريكية والقيم الأمريكية، هو نتيجة لعقلانية التنوير. فالتاريخ العالمى لإنسانية متنوّرة تتقدم نحو السلام، يضفى الشرعية على حربٍ مستمرة لتحقيق هذا السلام.

وعلى أية حال، فليس العقل هو الذى يجعل بوش وبن لادن يسعيان للتحكم فى قَدَر العالم، وإنما إيمانهما الرّؤيوى. فلا يمثل بوش أو بن لادن التنوير. فدعواهما المتابعة لمهمة مقَدَّسة ولَقَدر قدَّره الله، واعتقادهما المسيانى وإيمان كل منهما أنه المختار الوحيد للدفاع عن شعبه ضد الهجوم - كل هذا يخاطب مرحلة ما قبل التنوير والخصوصية الدينية. فالمسألة ليست أنهما عقلانيان، بل العكس تماما هو الصحيح: فهما لا يريان المناقشة والحوار وتبادل الرأى بشكل عقلانى بالأمور الكافية لمعالجة ما يقومون به من أعمال، وإنما الأعداء هم الشر لا سبيل للتعامل معهم سوى باستخدام القوّة والعنف. أنت لا تُعمل العقل مع الإرهابيين (أو الأمريكيين إذا كنت أنتَ بن لادن) فما عليك إلا أن تقتلهم. **هذا كل ما فى الأمر. وهذا بالضبط هو الاعتقاد الرؤيوى لكل من بوش وبن لادن، فنظرة كل منهما للعالم هى النظرة الوحيدة الممكنة، وهى النظرة الوحيدة العقلانية المتاحة، مما يجعل كلاً منهما خطرًا شديدا يهدد سلام العالم.**

فى ذروة الحرب الباردة، قدَّم رينهولد نيبور - اللاهوتى الأمريكى البارز - تبريكات لاهوتية للنضال الأمريكى ضد السوڤييت. لقد عبَّر نيبور فى كتابه «سخرية التاريخ

الأمريكى» عن وجهة نظر نراها شائعة الآن بين المعاونين السياسيين والمنظّرين فى إدارة بوش، وهى أن الترتيبات السياسية الأمريكية وأسلوب الحياة الأمريكى هى الأكثر ملاءمة، بل وهى الترتيبات الاجتماعية الوحيدة التى تأخذ بها الشعوب العاقلة، بل والتى يجب أن تأخذ بها كل الشعوب على أية حال، وتصبو إليها. واعتقد نيبور - رغم تحذيراته الباكرة من أخطار الديمقراطية التى قد تخطفها المصالح الجزئية(٧٧) - أن الله كلف الحضارة الأمريكية بالنضال ضد الشيوعية، وأنها - أى الحضارة الأمريكية - هى التى ستشكل التاريخ الإنسانى لتصل به إلى قدره. ورغم انتقاده الباكر للإنجيل الاجتماعى(*)، فإن جنون الشك والارتياب الناتج عن الحرب الباردة كان يعنى أن نيبور تراجع فى النهاية إلى عقيدة ما بعد الألفية - وهى العقيدة الأمريكية التقليدية - القائلة بأن مملكة الرب - قد تحققت بالفعل فى التاريخ الأمريكى، باعتبار أمريكا أول أمة ديمقراطية حقا.

حكاية ما بعد الألفية عن التفوق الأمريكى، تجد مدافعين مفوهين عنها من نخبة المفكرين فى الساحل الشرقى، برغم تصويرها فى شكل تقليدى أكثر من الشكل اللاهوتى. ويضع روبرت كاجان فى كتابه ذى التأثير (الفردوس والسلطة) أساس القوة العسكرية والأيديولوچية لأمريكا، ويربطها بالضعف الأوروبى مما يذكرنا - بعمق - بنيبور، وكذلك بأسلوب بوش وكتّاب خطبه(٧٨). يتتبع كاجان الاعتقاد فى «الأهمية السَّامية للتجربة الأمريكية» منذ أيام الآباء المؤسسين؛ لأن الأمريكيين «كانوا دائما دوليينَ ليس بمعنى وجود مؤسسات دولية، وإنما بمبادئهم «وهذا هو السبب الذى جعل من السهل دائما على كثير من الأمريكيين أن يعتقدوا أنهم بإحراز تقدم فى تحقيق مصالحهم، فإنهم يُحقِّقون مصالح الإنسانية جمعاء، ولا زال كثير من الأمريكيين يعتقد الفكرة نفسها، فكما قال بنيامين فرانكلين: قضية أمريكا هى قضية البشر جميعًا(٧٩).

سبق نيبور كاجانَ فى عدة طرق جديرة بالملاحظة، بما فى ذلك الزعم بأن الأمريكيين مهتمون بكسب الحروب بينما الأوروبيون مهتمون بتجنبها، وأن أمريكا قوية تقنيا وعسكريا، أما أوروبا فضعيفة، وأن أمريكا - على هذا - هى الوحيدة المناسبة والمقدَّر لها

(*) حركة مسيحية ليبرالية، تهتم بالتركيز على خدمة المجتمع أكثر من التركيز على التفاصيل اللاهوتية - المترجم.

أن تكون هى المؤيّدة للحق ولما هو خير على المسرح العالمى، وأن أمريكا فى سعيها «لخير العالم» يعوقها أصدقاؤها وأعداؤها على سواء، ومن هنا فإن أمريكا هى المهيأة للعمل وحدها [من طرف واحد] دفاعًا عن الحرية(٨٠). وعلى وفق رأى كلٍّ من كاجان وبوش، وانطلاقا من موقع كلٍّ منهما، فإن الأفراد يخدمون الصالح العام بشكل أفضل عندما يكون عملهم مؤديا لتحقيق مصالحهم، تلك الفرضية التى تؤكدها الليبرالية الاقتصادية الجديدة(٨١). **هذه الأولوية للاقتصاد والتى تجعله يسبق الاعتبارات المعنوية، تعزز زعما سياسيا أكبر، وهو أن أمريكا تعمل لصالح البشرية على نحو أفضل إذا كانت تعمل على وفق المصالح الأمريكية.**

تصور الليبرالية الجديدة والإمبريالية للاقتصاد السياسى، رؤيوى بنفس درجة رؤيوية أشكال الألفية الدينية المنفتحة، التى يعتقد المدافعون عنها أنهم مكلفون باتباعها بصرف النظر عن الدمار والعنف اللذين قد ينتجان من ذلك(٨٢). وعلى هذا، فرغم مزاعم كاجان وآخرين أنهم ورثة محافظون للتراث الأمريكى الجمهورى بجذوره التنويرية، فالحقيقة أنه لا شىء محافظ أو تقليدى فى رؤية الاقتصاد السياسى الليبرالى الجديد التى أخذ بها الرؤساء الأمريكيون من ريجان إلى بوش واتبعوها طوال الثلاثين عاما الأخيرة. فالمتابعة اللاعقلية للعقيدة الاقتصادية، قد أدّت إلى الدمار المرعب للمجتمعات البشرية والبيئية، وكان هذا بعيدا عن التراث المحافظ، أو المجتمعات المحافظة، أو البيئة الطبيعية.

يؤمن المدافعون عن هذه العقيدة بقضيتهم مهما كانت الحجج التى يسوقها الطرف المعارض لهم. حقيقة أنهم كلما واجهوا معارضة أكثر كلما زاد استخدامهم للعنف والتدمير فى متابعة مهمتهم المقدسة، فهم يرون هذا التدمير والعنف لازمَيْن لتحقيق مهمتهم، فهذا يؤكد ببساطة صدق رؤاهم النبوئية، الطريق الذى اختاروه. فمن أجل تحقيق الخلاص لا بد من معركة عنيفة ولا بد من تضحيات.

ويقتفى نورمان كوهن جذور السياسات الغربية الرُّؤَيوية إلى ألفيى العصور الوسطى، الذين اعترضوا على فساد البابوية فى أواخر العصور الوسطى: لقد وعدوا بتخليص العالم من الفساد والشر من خلال ثورة عنيفة ضد النظام القائم(٨٣). هذا

النوع من الرؤيوية كان ـ ولا يزال ـ يمثّل انحرافًا قويًا عن العقائد الأخروية فى العهد الجديد. فرغم أنّ يسوع المسيح جذب الزيلوت [طائفة يهودية عرفت بمقاومتها الشديدة للرومان] الثوريِّين وأصبحوا من أتباعه، إلا أنه قاوم الذين آزروا القيام بتمرد عسكرى عنيف ضد حكم الإمبراطورية الرومانية غير العادل. «لم يتنبأ المسيح ـ بكل تأكيد ـ بأحداث عنف تسبق المجىء الثانى لابن الإنسان «Son of Man»، لكن الحواريين أنفسهم حُذِّروا من محاولة السيطرة على هذه الأحداث. بل لقد أمروا ألا يتبعوا من سيأتون بعده (بعد يسوع) زاعمين أنهم أعادوا اكتشاف المسيا messiah أو أن يحددوا ـ بدقة ـ وقت نهاية التاريخ. ففى إنجيل مرقس «وأما ذلك اليوم وتلك السّاعة فلا يعرفهما أحد» [١٣ : ٣٢]. وقبل كل شىء فإن أحدا لم يأمرهم باستخدام العنف لمحاولة ضبط التاريخ أو إيصاله إلى نهايته.

وتشتمل الرؤية الأمريكية الما بعد ألفية على الزعم بأن الجمهورية الأمريكية ـ وخاصة السوق الحرّة المرتبطة بشكل من الأشكال بالديمقراطية المُسَوّقة ـ هى الظهور الأول فى التاريخ لمجتمع بشرى حائز على الخلاص ـ مملكة الصّلاح الحقة المملكة الإلهية الحقّة true godly kingdom. لكن الرؤيوية المسيحية الحقّة هى الاعتقاد بأن المسيح قد أتى، وأن روح المسيح حاضرة فى الكنيسة، وأن المسيح سيأتى مرّة أخرى ليبين للمسيحيين بدقة على الطبيعة المؤقتة وغير الكاملة لكل جهودهم لتأسيس حكم الله على الأرض. فالإيمان الأخروى المسيحى يدل على أن نهاية التاريخ يعرفها بالفعل كل المسيحيين الذين يؤمنون حقا بموت المسيح وقيامته؛ لأن هذه الأحداث هى الرؤيا التى خلّص الله من خلالها الدنيا من الشر، وقلد الكنيسة سلطة الشهادة على حكم المسيح على كل سلطة أو قوة أخرى. لكن هذه الشهادة هى دائما شهادة مؤقتة مشروطة؛ لأن المسيحيين ينتظرون أيضا المجىء الثانى للمسيح، فهم يعيشون «بين زمنين»؛ صعود المسيح ليكون على يمين القُدْرة «يمين الله ـ right hand of God» ليحكم بوصفه (ربّا للتاريخ the lord of history)، والمجىء الثانى الموعود (للمسيح) قبل القضاء الأخير. والآن فرغم أن حقيقة سلطان المسيح لا يمكن إدراكها إلا من خلال عيون الإيمان، لكن مضمونها السياسى واضح بالنسبة للمؤمنين. بعد القيامة والصعود، لم يعد لأىٍّ أمة أو أى حكومة الحق فى الحكم، فكل حكومة من الآن فصاعدا مؤقتة

ومحدودة، ففحْوى الزعم الرؤيوى هو أن المسيح هو وحده الحاكم الحقيقى. وهذا الاعتراف يجعل كل الدعاوى الأخرى بالسيادة والسلطان والخلاص دعاوى نسبية، ويكشف الادعاء بالسلطان النهائى أو التفوق العالمى مبينًا زيفه وشره[٨٤].

هذا لا يعنى أن الكنيسة تُدعى كى تحكم لتحل محل الأمم كما فهم خطأ البابوات والأباطرة، كما أن هذا لا يعنى أيضا أن الأمة التى تَدَّعى أنها مسيحية ـ كما تخيل البيوريتانز مستعمرتهم الأمريكية على أنها مملكة الربّ على الأرض ـ أن يكون لها الحق فى أن تمد حكمها لتبسطه على الشعوب الأخرى. بل العكس، فالاعتراف بأن المسيحيين يعيشون بين زمنين (زمن قيامة المسيح وصعوده، وزمن عودته الآتية) يمنعهم من أن ينظروا برضى كامل لمجتمعاتهم، ويمنعهم من اعتبارها تحقيقًا كاملاً لمعنى مملكة الرب. فهذه المملكة، ستقتحم التاريخ بحسم مع مجىء المسيح، فاكتمالها ما زال مُنتظرًا. وقد عرف المسيحيون الأوائل أن مجتمعاتهم وترتيباتهم السياسية كانت مؤقتة، وأنه على الأرض لا مكان لمدينة مستمرة . هذا الاعتراف يُبعد الرّؤى المسيحية عن العنف المقدر الذى يُعد من خصائص السياسات الرؤيوية الحديثة. فالمسيحى الذى يدرك المعنى الحقيقى لسفر الرؤيا ليس له الحق ـ وليس له مبرر ـ لاستخدام العنف للدفاع عن القيم المسيحية أو عن المدينة المسيحية، فهذه المدينة لم تأتِ بعد، وإنما هو لا يزال يتطلّع لها.

***